عظماء امتي

يوسف العظمة

محمد الشرابي

محمد الشرباصي

يوسف العظمة

كان يوسف بمفرده امة ، وكان وحده
جيشاً ، بل أقوى من جيش .

مكتبة الشرق
للطباعة والنشر والتوزيع
عبد السميع عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الطالب

على الروابى الابية الخضراء ... روابي ميسلون الخالدة ، جرى دمُ البطلِ يوسف العظمة يروّي الثرى..

لقد أبى يوسفُ ان يرى وطنهُ مستعبداً .. وأبتْ عليه كرامتهُ ان يعيشَ في ظلِ استعبادٍ واحتلال .. وفضّل أن يموتَ ميتةَ الابطالِ ،فكان لهُ ماأراد.

انطلقَ يوسفُ العظمة إلى ميسلونَ بفئةٍ قليلةٍ .. وايمانٍ عظيم .

وفي ميسلونَ استُشهدَ ، وفيها أطبقَ جفنيـهِ على الرايةِ العربيةِ خفـاقةً .. لم تطوها يدُ غادرٍ كافرٍ ، وفى حارسِها البطلِ رمقٌ .

رحمَ الله يوسفَ فقد كان بمفرده جيشاً ، وأقوى من جيش .

الكفاح العربي

لم يعرفْ نضالُ الامم في تاريخه الحديث، صورةً وضاءة، مشرّفةً كنضال الامة العربية؛ ولم تشهد مسارح البطولات في شرقي الدنيا وغربها، وشمالها وجنوبها، بطولةً كالتي أبرزها الشعبُ العربيُ في نضاله ..

إنها بطولةُ الايمان والتضحية، بطولةُ الاحساس بالعزة والكرامة .. بطولةُ الحرية السارية في الشرايين مسرى الدماء.

لقد مُني الشعبُ العربيُ منذُ القدم، أو على الاصح منذُ أن تفرقتْ كلمتهُ، وأصبحَ شيعاً واحزاباً وطوائف بحكم الاستعمار، وتسلط الاغيار، وناءَ كتفهُ باثقال الحكم، وأوزار الحاكمين، فاستُلبَ زرعهُ، واحتُلِبَ ضرعهُ، ونُهبتْ خيراتهُ، حتى كادَ يدبُّ فيه اليأسُ من الحياة لكنَّ يأسهُ لمْ يبعدهُ يوماً عن ميادين النضال والكفاح.

قاومَ الاستعمارَ التركي الغاشم ، الذى دامَ مئاتِ السنينَ ، ومزّقَ الحجابَ عن الادعاءاتِ الكاذبةِ التى كانَ يدعيها الاتراكَ ... ادعاءاتِ الاخوةِ في الدينِ ، والمساواةِ في ظل الخلافةِ ، وازاحَ القناعَ عن تلك النفوسِ الدنيئة ، التي يتأكلها الحقدُ الاسودُ ، وتعملُ فيها الخسةُ والنذالةُ .

وضربَ الشعبُ ضرباتِه الموفقةِ ، وأزاحَ عن كاهلهِ ذلك الكابوسَ الثقيلَ ، وطرحَ بقوةِ الحملَ المزعج الذي ناءَ به طيلةَ السنينَ المتعاقبةِ .. وقال كلمتهُ في وجوده فنزلتْ كدستورِ الحياة في صفحة الحياة ..

وبذلك .. بقولةِ الشعبِ ، انطلقتْ جمعياتُ الشبابِ من الشعبِ العربي ، تؤدي رسالتها ، وتعلنُ رأيها وتنادي، بوحدةِ الامةِ العربيةِ ، وانفصالها عن الاتراكِ المستغلين المستعمرين .

وجُنّتِ الافعى الرابضة في دمِ الرجل المريضِ

(تركيا) وتحركَ سُمها الزعافُ يختلطُ بدمائها ..

لقد هالها ان تقولَ العربُ فيها شيئاً ، وأدركتْ جيداً ان حيلَها لم تعدْ لتنطلِ على الشعبِ المؤمنِ بحقه المشرأبِ بعنقه الى مصدرِ النورِ ، فكشرتْ عن أنيابها وتلقفتْ باذاها خيرةَ شبابِ العربِ ، في محاكمةٍ صوريةٍ هزيلةٍ .. اقامها سفاحُ الاتراكِ في عالية ، وتمخضتْ عن احكامٍ قاسيةٍ كلُها ظلمٌ وجورٌ ، قضتْ بتعليقِ عددٍ من الاحرارِ على أعوادِ المشانقِ فى دمشق وبيروت .

بهذهِ المشانقِ ، وباحكامِ محكمةِ عالية ، لفظ الشعبُ العربيُ حكمهُ الاخيرَ على الاتراكِ ، وقذفَ في وجوههم باسطورةِ الاخوةِ والمساواةِ والعدالةِ ، ورحبَ باحكامِ محكمةِ عالية ، وبمشانقِ دمشق وبيروت ، لتكونَ نقطةَ الانطلاقِ الى التحررِ ، ومشاعلَ الحريةِ ، تنيرُ الطريقَ للاحرارِ عبرَ الاجيالِ .

بعد الحرب العالمية الاولى

ظنّ العربُ في الحلفاء خيراً، وحسبوا ان الغادرينَ الماكرينَ سيسلّمونَ لهم بما جاهدوا من أجلهِ، وقاتلوا في سبيلهِ؛ لكن الوقائعَ أظهرتْ ان آمالَ العربِ بانصافِ الغربِ، كانتْ كالسرابِ الخادع، وأن اتفاقاً غادراً عقد بين دولتي الاستعمارِ الغاشمِ - انكلترا وفرنسا - على تقسيم البلادِ العربيةِ، وجعلها مناطقَ نفوذٍ واحتلال.

كان المؤتمرُ الوطني الذي انعقدَ في سوريا، بعد دخولِ الجيشِ العربي اليها قد نادى بالاميرِ فيصلِ ملكاً وتوّجهُ في يوم ٨ آذار سنة ٩٢٠، لكن المستعمرينَ هالهم ان يقولَ الشعبُ كلمته في تقريرِ الحكمِ الذي يريده آنذاكَ، فارسلتْ فرنسا قواتها بقيادةِ الجنرال غورو، الذي تقدمَ بعد احتلالِ لبنانَ في اراضي سوريا، ووجه انذاراً الى الحكومةِ في دمشق يطلبُ التسليمَ ببعضِ

المطالبِ ، منها :

- تسريحُ الجيش .

- قبولُ التعاملِ بالعملةِ الورقيةِ التى يُصدرها بنك سوريا ولبنان .

- تسليمُ خط رياق - حلب الحديدى .

وأعقبَ غورو انذارهُ بامرِ التحركِ باتجاه دمشق.

وقد حاولَ وزراء ذلك العهدِ الحيلولة دون وقوع الكارثة، فلم ينجحوا ... كما خانَ بعضهم امانة الوطن .

ولم يجدِ الملكُ بداً من التسليمِ بالمطالبِ ، فقررتْ وزارتهُ تسريحَ الجيشِ ، وابتدأتْ فعلاً عمليةُ التسريحِ على الرغمِ من معارضه يوسفُ العظمةِ لهـذا القرارِ ، وارسلَ فيصلُ جواباً للجنرالِ غورو بقبولِ الشروط..

لكن الجوابَ على حد زعم الجنرالِ الوغد اللئيمِ ، وصلَ متأخراً ، بعد أن أمرَ قواته بالتحركِ ..

وهنا لم يبقَ في قوسِ الصبرِ منزعٌ ، ولم يبقَ امامَ

الاحرارِ الا أن يتقدموا الى ساحاتِ الشرفِ ' ليبذلوا دماءهم رخيصة ، فتقدموا ، وكانوا قلةً من الجندِ النظامي لاتزيدُ عن السبعينَ رجلاً ، بقيادةِ وزيرِ الحربيةِ يوسف العظمة ' وانطلقَ من ورائهم عددٌ من المجاهدينَ المتطوعينَ .. يقودهم إيمانهم بحقِ وطنهم ' في الحياةِ الحرةِ الكريمةِ .

يوسف العظمة

في دمشق الخالدةِ ، وفي حيٍ من احيائها المعروفةِ بحي الشاغور ' في دارِ آل العظمة وُلدَ يوسفُ لابٍ موظف مالي ' يُدعي ابراهيمُ التركماني الشهير بالعظمة ، ينحدرُ عن جدٍ كان من سراةِ دمشق ومن كبار رجالِ الجيش .

ولد يوسفُ عام ١٨٨٤ وذاقَ اليتمَ وهو ابنُ ستِ سنواتٍ فعاشَ في كنفِ أخيه الاكبر ..

أتمَّ دراستهُ الابتدائية في مدارسِ دمشق ' ثم دخلَ

عام ١٨٩٣ المدرسة الرشدية العسكرية ، التي تهيء الطلاب للانتساب لمدارس الضباط ، ودخل بعد ذلك المدرسة الاعدادية العسكرية ، ثم انتقل الى المدرسة العسكرية في الاستانة وتخرج في عام ١٩٠٣ من المدرسة الحربية برتبة ملازم ثان .

كان يوسف ذكياً .. مفرطاً في الذكاء ، سباقاً في الدرس ، مجلياً في التحصيل ، فما عرف عنه انه تأخر في درس ، ولا رسب في صف ، أو تهاون في واجب.

ولقد لازمه النجاح في كل مراحل دراسته، حتى انه تفوق في المدرسة الحربية تفوقاً هائلاً ،وفاز بالاولية، فدخل مدرسة الاركان ، وكان برتبة ملازم اول ، وتخرج منها برتبة رئيس ، وبسبب نجاحه في الدرجات الاولى منح وسام المعارف الذهبي .

كان يوسف ضليعاً في اللغة العربية ، اديباً فيها ذا بيان مشرق وضاح ، وكان يتقن الى جانبها اللغات

التركيةِ والانكليزيةِ والفرنسيةِ والالمانية ..

... وتدرجَ يوسفُ بعد ذلك في المراتبِ ، وشغلَ أعلى المناصبِ وأهمها ، وانتقلَ من قطعةِ الى قطعةِ في الجيش ، ومن بلدِ الى بلد ، يُؤدي واجبه كجندي ويعرف حقهُ كعربيٍ مؤمن بعروبتهِ ؛ حتى اذا وضعت الحربُ العالميةُ الاولى اوزارها ، وانطفأ اوارها ، كانَ في طليعة القادة الذين اندفعوا الى الواجبِ القومي ليُهيئوا للوطن العربي الناشيء جيشاً يحمي حماهُ ويدفعُ عنهُ ، واختيرَ في عام ١٩١٨ مرافقاً للاميرِ فيصل ، وفي عهدِ الوزارة الاولى التي كانَ يرأسها رضا الركابي ، عُينَ يوسفُ رئيساً للاركان ثم تسلّمَ وزارةَ الحربيةِ في عام ١٩٢٠

ايمانه بالاستقلال

كانَ يوسفُ أشدَّ الناسِ إيماناً بالاستقلالِ ، وأعمقهم تفكيراً في الحريةِ ، وأعظمهم اقبالاً على العملِ في سبيل

الوطنِ ... كانَ لا يعرفُ راحةً للتفكيرِ ، ولا رضى في الواقعِ الذي لا يُلائمُ الحقَ .

جاءهُ مرة بعضُ الضباطِ والاهلينَ مهنئينَ بالعيدِ فقالَ لهم :

« علامَ الفرحُ والبشرى ، وعلامَ التهنئةُ والتبريك وهل لشعبٍ لم ينلْ تمامَ حقهِ وكلَّ مكانتهِ بين الاممِ من عيدٍ ؟ الا ان لنا عيداً واحداً ، ذلك العيدُ الذي يُعترفُ باستقلالنا فيه متربعينَ على عروشِ الحرياتِ .. اما ونحن على مانحنُ فيه من حالٍ مرجرجٍ ، لا يعلمُ الا اللهُ مصيرهُ ، فلا يحقُ لنا ان يُهنيء بعضنا بعضاً بقدومِ عيد ليس بالحقيقةِ عيداً .. »

موقعة ميسلون

قررَ يوسفُ العظمة ان لايتركَ الطريقَ ممهداً للغاصبينَ يجتازونهُ بسهولةٍ ويسرٍ ، فيعتقدون في قرارةِ

نفوسهم . ان العربَ استسلموا للذلِ ، ورضوا بالحكمِ ... وعوَّلَ على الانطلاقِ الى ميسلون ، ليقفَ فيها موقفَ البطولةِ والشجاعةِ ، فان انتصرَ بفئةٍ قليلةٍ فذلك فضلُ اللهِ ، وان لم ينتصرْ فتلك ارادةُ اللهِ ..

وعقدَ يوسفُ اجتماعاً شعبياً في دمشق ، في بهو المشيرية ، ووقفَ خطيباً وأعلن :

« ان عربَ سوريا ليسوا دعاةَ حربٍ ولا عدوان، وانما هم دعاةُ نَصَفةٍ ، وروادُ حياةٍ حقةٍ ، وان الشعبَ سيقفُ في الدفاعِ عن حريتهِ ، وستعلمُ فرنسا ان حياةَ المرءِ بالموتِ شريفاً يذودُ كالاسدِ عن عرينه ، هي حياةٌ حقيقةٌ ينشدها كلُ ساعٍ للعيشِ تحت الشمسِ .. ثم أثار حماسَ الشعبِ فقال :

« انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم فوالله ماماتَ حرٌ ابيٌ ، ولا عاشَ عبدٌ ذليلٌ » وختم خطابه قائلاً :

ليس لي ما اوصيكم ، بعد ذهابي ، الا طفلتي العزيزة ليلى ، التي اتركها الى كنفِ عطفكم وطهارةِ ذمتكم ، فهي الاملُ الوحيدُ بعد الوطنِ » .

ومضى يوسفُ الى ميسلونَ تدفعهُ حميتهُ ، ويقودهُ ايمانهُ ، ومضتْ وراءهُ قبضةٌ من ابطالِ نذروا انفسهم للوطنِ ، وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ..

وهناك على الرابيةِ المقدسةِ ، تلاقى الجيشانِ .. جيشُ الكفرِ ، وجيشُ الايمانِ .. جيشٌ عمادهُ اسلحةٌ وذخائرٌ ، وعددٌ وفيرٌ ، وعدةٌ كاملةٌ .. وجيشٌ ، او بقايا جيش ، بعد أن سُرّحَ اكثرهُ استجابةً للانذارِ الفرنسي ، عمادُه بقايا اسلحةٍ لاتُغني وذخرهُ ايمانٌ لايتزعزع .

وحاولَ يوسفُ بهذه الفئةِ القليلةِ ان يُقاتلَ ، واثبتَ في القتالِ اوفى معاني الاستبسال.. ولم يمضِ من يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ الا أقلهُ حتى انتهت المعركةُ ...

واصطبغ ثرى ميسلون بدم الشهيد البطل ، ودماء اخوانه البواسل .

انطوت بمعركة ميسلون صفحة بطولة لتنفتح صفحات كثيرة مشرقة ، صفحات بطولة وتضحية وفداء ، صفحات غراء في تاريخ العروبة ..

واندلعت في سوريا ثورات دامية ، ثورات تحرير وانطلاق وإباء ، ثورات عزة وكرامة ورجولة ...

ففي الشمال اسده ابراهيم هنانو ، وفي الغرب بطله صالح العلي ، وفي الجنوب ميامينه حسن الخراط ، واحمد مريود واخوانهما ... وفي جبل العرب الاشم سلطان الاطرش .. وكانت الثورات في الحقيقة امتداداً لمعركة ميسلون ، تتغذى كلها من معين واحد ، وتهدف الى نتيجة واحدة ، حتى اقترنت في عام ١٩٤٥ بالنتيجة الحاسمة ، واندحر الاستعمار أسوأ اندحار ، وخرجت جيوشه من الوطن الأبي ، تجرر ازيال خزيها وعارها وانكسارها .

وبعد ...

لم يكنْ يوسفُ العظمةِ فرداً، وانما كانَ بمفهومهِ ومنطقهِ امةً .. كانَ شعلةَ قوةٍ واندفاعٍ وايمان .. فلما حمَّ القضاء، تلقى الموتَ بنفس رضية، ووفى بما عاهدَ، فلم يتركِ الطريقَ الى دمشقَ مفتوحاً، ولم يرضَ ان تتقذى عينهُ، بمشهدِ المحتلينَ بزهوهم وخيلائهمْ، وفيهِ عرقٌ ينبض.

وعندما انتهت المعركةُ .. وقفَ قائدُ الجيش الغادر الزاحف، وحيا البطلَ الشهيدَ تحيةً ملؤها الاجلالُ ..

وهكذا ربحُ يوسفُ المجدَ حياً وميتاً، فحقَ لهُ ان يُسجلَ في الخالدينَ الذينَ هم احياء عندَ ربهمْ يرزقونَ .


م. سرمد حاتم شكر

مطبعة اوفست